

# من نجيب محفوظ إلى أبناء العالم الآخر

## درس في المقاومة!

بقلم إيليا محمد صالح

باتخاذ القرارات الخطيرة والغاء الخطب النارية الرنانة وتنظيم المظاهرات والاضرابات :

« نحن مندوبي اللجنة انتشرنا في أنحاء القطر المدعوة الى فرار خطير ! » و « الجميع استجاب لنداء الوطنية » . و « سيفلقون الابواب جميعا بلا استثناء » . وحتى اليوم ما زال مفهوم الكفاح الوطني عند الملايين العربية سلبيا حيث يعيش الناس يومهم في لهسو ولا مبالاة ، ينامون ويستيقظون على سماع الاخبار ، يتمنون ويدعون الله ، ويحلمون بتحقيق المعجزات ، بينما العدو من حولهم يعمل ويهدد وينقدم . وعندما يشتد حماسهم وتستيقظ وطنيتهم يكتفون بالانفعالات العاطفية الآنية فيفصبون ويهددون وينظاهرون ، ويلفنون الظلام ، ثم يعودون فيلفسون اللوم على من كان السبب ويعلمون عجزهم ويسنجدون السماء سدا وينتظرون الفرج .

لكن الكفاح في الدرب انخذ شكلا آخر . الكفاح في عالم أهمل الدرب يبدأ بالتخطيط والتصميم على التنفيذ : « كل شيء بأوانه ، والا دمرنا تدميرا لا يقي ولا يذر » . و « ثق من انني ساضربه ذات يوم » . ثم هو كفاح ايجابي عنيد وصلب لا يعرف السلبية ولا الانفعال العاطفي : « لا وقت هنا للبكاء » . و « ان اي ضعف يعترينا هنا انها يعنسي هلاكنا ! » و « دستورنا .. يقضي بان نعمل لا أن نضرب ، أن نعمل لا ان نبكي موتانا » . وهو كفاح قائم على الاعتماد على النفس ، وعلى المقاومة التي لا تلين ولا تستسلم ولا تستجدي الحماية من احد مهما بلغت قوة الخصم وفداحة التصحيفة : فالراقصة « خاضت معركة مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء .. » . وتابع المعلمة واجسه مصيره بكل شجاعة وتحد وبسالة وعزة نفس . ولعل في الحوار التالي خير مثل تقدمه القصة على نوع الكفاح والصمود والمقاومة ، وعلى صدق البادئ والقيم والتقاليد التي تنقصنا اليوم كما كانت تنقص أهمل العالم الآخر .

يسأل الشاب صديقه التابع عما سيفعله عندما سيقتحم الفتوة البيت محطما من يعترضه فيجيبه التابع :

لا أستطيع ان ادعه يبر دون مقاومة !

— أفكر في اعتر سبيله ؟

— هذا هو عملي .

— عملك ؟

متى نتخلص من مفاهيمنا السلبية العتيقة التي كانت سبب النكبة والبلاء !

متى نستبدل تقاليدنا البالية بقيم ايجابية واقعية جديدة ؟  
وحتى متى نظل حيانا حياة خنوع واستسلام وعجز ؟!

لعل هذا هو ما يريد نجيب محفوظ من كل منا ان يسأله لنفسه في هذه الايام من خلال قصته القصيرة التي نشرها مؤخرا في عدد مايو من مجلة الهلال بعنوان : « العالم الآخر » . والفصة باختصار تتحدث عن طالب يدخل دربا ضيفا في حي شعبي ليدعو صاحبة القهوة فيسه ونابعها الى الاضراب احتجاجا على الغاء الدستور . وهناك يشهد موت احدى الراقصات بالسكنة القلبية ، كما يشهد صراعا ينتهي بمسوت التابع والفتوة الكبير الذي اعتدى على حرمة القهوة . وخلال الفترة التي فضاها الطالب في عالم أهل الدرب نراه يشترك في حوار يكشف عن زيف كثير من المفاهيم المتعمدة في مجتمعنا العربي . ثم نراه يمر بتجربة حية تعلمه — وعلما ايضا الكثير من الدروس عن جدوى العمل، والقيام بالواجب ، وعن ضرورة التصميم على المقاومة ، والمسوت اذا اقتضى الامر دفاعا عن النفس والمك والكرامة .

اما « العالم الآخر » فهو عالم الملايين العربية البورجوازية اللامبالية وغير ملتزمة في مصر ، وربما في بيروت ودمشق وبغداد ايضا . انه العالم الذي ما زال يعيش حتى يومنا هذا بمفاهيم وقيم وتقاليد فترة الاحتلال الاجنبي قبل حوالي خمسين سنة ، وكان شيئا لم يتغير منذ ذلك الوقت . ذلك ان احداث القصة تدور في فترة زمنية تعود الى العشرينات ايام الاحتلال الانجليزي في مصر . ولعل مثل هذا التوقيت له علاقة بالاحتلال الجديد لبعض الاراضي المصرية والعربية ، كما ان فيه اشارة الى ان كثيرا من مفاهيمنا ما زالت كما كانت عليه منذ ايام الاحتلال لم تتغير ولم تتبدل .

واما العالم الحقيقي عند نجيب محفوظ فهو عالم أهمل الدرب الشعبي الضيق الواقع في شارع كلوت بك بكل ما فيه من مساوئ وحسنات . انه عالم المعلمة ونابعها ومسا يمثله من صدق البادئ والمشارع ، ومن واقعية القيم والتقاليد ، ومن ايجابية المقاومة والكفاح . ولكن ما هي مفاهيم أهل « العالم الآخر » وقيمهم وتقاليدهم اذا ما قورنت بمفاهيم ابناء الدرب وقيمهم وتقاليدهم ؟

لقد كان الكفاح في العالم الآخر ايسام الاحتلال الاجنبي يتمثل

وعندما كان ينفجر ابن الدرب في وجهه قائلا : « انسي اتوثب لواجهة القضاء وانت تحلم بالخرافات » كان يرد عليه بكل بساطة وغباء وبرود : « سمعنا عن جثت دبت فيها الحياة بعد دفنها ! »

والحق ان الطالب الذي يمثل العالم الآخر كان يقف دائما مشدوها حائرا متمجبا لا يفهم ما يقال له بوضوح ولا يدرك شيئا عن قيم العالم الغريب الذي دخله ولا عن مفاهيمه وتقاليدته الغريبة عنه . ولذلك نراه في اغلب الاوقات يردد عبارات التساؤل والاستفسار والتعجب :

- موفقك غير مفهوم يا هانم !

- عم تتحدثين ؟

- أفندم ؟

- لا افهمك .

- انه اعجب مكان رأيتنه في حياسي ..

ذلك ان الطالب اعتاد في العالم الآخر على تقاليد ومفاهيم معينة حيث يطبق الاضطهاد على الناس في بيوتهم ويطاردهم خارجها ويحولهم الى عبيد مضطهدين خاضعين لسلطة الطاغية يلتمهم لحمهم ويهشم عظمهم . وحيث يدفن المجتهد في ادارة من ادارات الحكومة لا يرتقي الا بالواسطة او بسلطة الغير ورضاء الاسياد نتيجة للخضوع والنفاق والكذب . ولا شك في ان من اعتاد على مثل هذه المفاهيم والتقاليد في حياته يصعب عليه فهم تقاليد وقيم اهل الدرب حيث « تسعد النفس بجمع محرمات العالم الآخر ، مثل الحب والحريسة والاحترام ! » وحيث « يتقرر مصيرك بقوة رأسك ، ويتحدد مركزك المالي بجركك ، وتقرر سعادتك بطاقة حيوتك ، فلا زيف على الاطلاق .. »

ولكن هل سيدرك ابناء العالم الآخر زيف القيم والتقاليد التي يعيشون في ظلها ؟ ومنى يتخلصون من ذل الخضوع والعجز ، ومن عار الاستسلام الى عالم الخيال والاحلام والسلبية ؟ متى يؤمنون بالصدق في القول والعمل ، وبمفاهيم الصمود والمقاومة والتضحية والكفاح الايجابي دفاعا عن النفس والوجود والكرامة !

وهل سيتبنى عالمنا قيم اهل الدرب ومفاهيمهم مرة واحدة ام بالتدريج ؟ ومتى ؟ هذا ما سوف يجيب عنه المستقبل ، والمستقبل الغريب كما يسود للمتفائلين .

ولعل روح المقاومة والتضحية التي ابدتها تابع المعلمة امسام جبوت الفتوة وعصابته دفاعا عن نفسه وعمله وكرامته ، لعل هذه الروح لا تختلف كثيرا عما نشهده اليوم عند نفس من آمنوا بالمقاومة باوسع واسمى معانيها ، ولا عما يفكر به أحد ممثلي اهل المقاومة والفداء عندما يقول :

« لقد رفضنا ( كامو ) لان ايمانه بالعقل والحكمة اصبح امسرا رومنطقيا نظريا . ليس امامنا اختيار آخر . فاما ان نعرض كعبيد وتنتشت في اربعة اطراف الارض . او ان نمتشق السلاح . ولهذا كان منطقتنا مستندا من برميل البارود » ومن فاتون وغيفارا ، تماما كما كان منطقتنا مساعدا المعلمة ونابعها مستندا من الخنجر والاعتماد على النفس ومن المقاومة الانتحارية والعمل الصامت البعيد عن النظريات الخيالية الحالية وعن الكفاح السلبي المتجدي العاجز .

الكويت

اياد احمد ملحم

- انا حامي منطقة المعلمة .

- ولكنه .. ولكنه سيقضي عليك .  
- ربما !

- انه مؤكد ، فلا تخاطر بحياتك .

- هو عملي كما قلت لك .

- تجاهله ..

- افقد عملي وكرامتي .

- يمكن ان تتسلل بطريقة ما الى الشرطة !

فقال ضاحكا :

- افقد كرامتي مرتين .

- لا افهمك .

- هي تقاليد عملي .

- أخشى ان نذهب ضحية للفرور ، دعني اتسلل انا ..

- ارفض اقتراحك ..

- انت مهدد بفقد حياتك .

- محتمل !

- قد تكون آخر ساعة في حياتك .

- قول يصدق على اي مخلوق !

- ان تكون معركة عادلة .

- لا توجد معركة عادلة ! الخ ..

والحقيقة ان في هذا الحوار القصير تباينا واضحا في التفكير والمفاهيم بين عقلية ابن الدرب وموقفه الذي تعلمنا اكثر من درس في الكفاح والمقاومة والقيام بالواجب ، وفي الصمود والبسالة وعزة النفس والتضحية ، وبين عقلية الطالب ابن العالم الآخر وموقفه المسمي بالتجاهل واللامبالاة ، وبالعجز والشكوى واستجداء الحماية ، وبعدم الادراك لمعاني الكرامة والتضحية والواجب . هذا بالإضافة الى ما نلاحظه عند الاول من واقعية في التفكير وايجابية في العمل وتصميم على الدفاع ، وما نلاحظه عند الثاني من روح الذل والهانة والجبن المقتصر بالغباء والتجاهل واختراع المبررات .

والعالم الآخر هو عالم الخيال والاماني والنظريات السلبية البهتة حيث يهرب الناس من ذلهم وعجزهم الى مزيد من الذل والاستجداء ، ومن ضعفهم واستسلامهم الى الاحتماء بعبارات مثل الصدق ، والسلام ، والادب ، والانسانية . ففي العالم الآخر الذي قدم منه الشاب عضو لجنة الطلبة نرى « السماء تمطر ادبا » ، والكثيرين « يذكرون وينجحون ويشتركون في المظاهرات وليس لديهم فكرة عن اي شيء سوى الكتب والدستور » . وعندما تتجاهل المعلمة جثة الراقصة ولا تحترم المسوت لانه كما نقول « لم يحدث شيء غير طبيعي ، وليس في قدرتنا ان نرد الارواح الى اجسادها .. » ولانه « لا جدوى من تصرف انساني يقضي علينا بالخراب العاجل . » في مثل هذا الموقف الواقعي نسمع ابسن العالم الآخر يحتاج على هذه المفاهيم الجديدة عليمه ويصبح غاضبا : « ولكنه تصرف ابعد ما يكون عن الانسانية .. » وهو « وضع لا يقبله عقل .. » . وفي الوقت الذي كان يمتلئ فيسه عالم الدرب بسروح الكفاح والعمل كان الطالب القادم من العالم الآخر يكتفي بالتعبير عن مشاعره واحلامه وتمنياته : « اني حزين ، بودي ان افسسل شيئا . » و « بودي ان اصعد الى حجرة الفتاة .. لاجس نبضها من جديد ! » .